محمود درويش

قبل الزيارة وبعد الزائر

عشنا ورأينا ، كانت شاشة التلفزيون واضحة امس. وكانت لعبة المهرجين ، المصري والاسرائيلي ، واضحة ايضا . لم يلتق على مسرح من مسارح التاريخ مثل هذين الخصمين . الكنيست عامرة بالجنرالات والسياسيين الذين اسسوا تاريخ الهزيمة العربية منذ ثلاثين عاما ، يستمعون بدهشة وتقدير الى اول حاكم عربي بينهم . التعبير على الوجوه متأرجح . انه يعرض عليهم السلام الكامل والاعتراف الكامل مقابل ان يقنعوا بحدود الهزيمة العربية الثالثة . يعجبون من هذا الكلام الغريب . ويصفقون لان الخطيب رئيس اكبر دولة عربية ، ونبي الاعتراف . ومع ذلك ، فان المهرج الاسرائيلي يرفض ويرفض . وتنتهي المبارزة الودية بالنتيجة التالية : انتحر الحاكم العربي عربيا ، وربح اميركيا . وحقق الاكتشاف التالي : اسرائيل لا تريد الانسحاب ولا تريد الاعتراف بالفلسطينيين .

الآن ، دورنا لنصفق . هل كان الحاكم المصري في حاجة الى هذه المقامرة وتقديم وعد بلفور جديد ، ليحقق هذا الاكتشاف ؟ لماذا ذهب الى القدس ؟ لماذا ذهب الى الكنيست ؟ لماذا اغتال احلام جيل كامل ؟. نعرف ان هذه الاسئلة وما يرافقها من تساؤل حول كرامة الامة والوطن غريبة عن رجل في مثل هذا الحجم . ولكننا سنواصل : الى اين يذهب الآن ؟ الى الرئيس الاميركي ليعاتب ام الى الجبهة ليحارب ؟. واذا كانت المفاوضات المباشرة جدا جدا في القدس المحتلة قد اوصلت الى هذه النتيجة ، فماذا سيأتي من جنيف ؟

ومع ذلك .. مع ذلك . ان شيئا خطيرا قد حدث . والجريمة تم ارتكابها ، وعلى مرأى من ملايين العيون وعلى جثث الاف الشهداء .

لنعترف ، منذ البداية ، بان زمنا جديدا للصراع العربي ـ الصهيوني قد تكون . ولنعترف ايضا بان يوم السبت الاسود لم يكن افتتاحية هذا الزمن . كان يوم السبت يوم حفلة الزفاف الكبرى بين القتلة الاسرائيليين وبين القاتل العربي الاول ، والقتلة دائما يلتقون في اول المبارزة وقد يلتقون في نهايتها لانهم من جوهر متشابه. ورئيس مصر الحالي واحد منهم . واحد من قتلة احلام شعوبهم . واكبر تاجر دم عرفه تاريخ العرب الحديث ، ظل يعبر ، ويعبر ، ويعبر ، حتى ارتمى في احضان عزيزه الجديد : مناحيم بيغن .

الدهشة تدوخنا على السطح . وفي الاعماق .. لا شيء يثير الدهشة . فان الذي يزحف بهذه النشوة وبهذا الاصرار الى البيت الابيض ، لتقديم الاعتذار عما فعلته مصر باعداء الارض العربية والانسان العربي ، سيصل الى اصل العائلة ويدخلها واحدا من افرادها ، متساوي الحقوق ، وكامل الذل .

انه واحد منهم ، منذ اخرجه رحيل عبدالناصر من عقدة الظل ، مليئا بالعاهات النفسية وشهوة المسرح، وهو يكدح من اجل هذا الانتماء . فرعون بلا مجد ومن دون جدارة . يدلل حنجرته ويبحث عن منبر شاغر في التاريخ ولا يجده الا في الكنيست . ما الذي يبعده عن الشطارة الصهيونية ؟ سيعرف كيف يزاحمها على دورها ويتفوق. يستطيع العودة الى الوراء بايقاع حاسم . حاكم في العالم الثالث ، ولا من يقاوم . يغطي النيل والارياف بتأتأة جهورية ، ويحقق المعجزة . صفقوا له . انه الاول .

اول حاكم عربي يعترف باسرائيل في احضانها . واول حاكم في العالم يعترف ، نفسيا ومعنويا ، « باوشليم القدس » عاصمة لاسرائيل . انه ساحر ، مدهش ، عنوان لكل الصحف في كل انحاء العالم ، انه اللاعب الاول والاول في سيرك لا يجرؤ اللاعبون فيه على مثل هذه المجازفة . كاميرات وكاميرات . هذا هو المهم ، وما قيمة الارض؟ سيناء رمال ميتة، والجولان جبال وعرة . والقدس ؟لقد وجد الحل ، انها مسجد وكنيسة . وعمر بن الخطاب لم يكن واقعيا ولم يفهم الوفاق الدولي جيدا . جاءها عمر راجلا يجر ناقة . اما هو ، فيجيئها بمصفحة اسرائيلية تحميه من حجارة الاولاد في القدس . وهكذا ، ينتهي الصراع . وبعد قليل ، قد لا يجده احد ليذكره بانه كان اسيرا ذليلا في القدس . كان مهرج الغزاة .

نحن نشمئز ، وهو ينتشي : هل وقف جنرالات صهيون لغيره من الحكام العرب ؟.

نحن نبصق ، وهو يسكر : هل استطاع حاكم عربي اخر ان ينجز هذه الصداقة ، على يمينه بطل دير ياسين

وامامه الذين ابادوا عشرين الف جندي في رمال سيناء .

نحن نحتقر ، وهو يفاخر : هل استطاع الملك سليمان ان يحلم في نشيد الاناشيد بهذا العناق مع الفتاة الاسرائيلية المدهشة غولدا ؟

انه الاول ، الاول ، الاول .

واذا قال فعل. قال سأذهب ، فذهب حبيب الاعداء، عدو الاصدقاء، يغطي صورة عبدالناصر فوق السد العالي، ويمسح العرق امام صورة هرتسل في الكنيسة . يفرم معارضيه ، ويعانق قتلة شعبه . تجوع الملايين الى الخبز والفول ، فيفرق القاهرة بالكوكاكولا وسجائر كنت، الفلتر الميكرونايت الابيض .. وينفتح ، ينفتح ، ينفتح على كل الغزاة وعلى نشيد الامل الصهيوني ، ولا حرام عنده، لا حرام الا اسئلة الطلبة ومطالب الفقراء .

لقد فعلها وانتهت الزيارة . فماذا بعد ، ماذا بعد ؟

في عالم آخر ، غير هذا العالم الثالث الغارق في القمع والاستبداد ، لا تقع هذه الجريمة في مثل هذه الوقاحة ، تقد انقرض هذا الصنف من المهرجين في عصرنا. هنالك احزاب ، برلمانات ، ديموقراطية . صحافة . رقابة شعبية . اما هنا ، فالحاكم هو الوطن ، والوطن هو الحاكم . لذلك فان ما يفعله هذا الحاكم المصري ، منذ سبع سنين خطير ، يعادل الكارثة .

لقد ادخل الصراع العربي ـ الصهيوني في زمن جديد . زمن التسامح والاستسلام . لنعترف بذلك ، ولندبر امورنا على هذا الاساس . وسواء اعطاه الاسرائيليون شيئا يعادل ما اعطاهم ، وهم لا يملكون مثل هذا الشيء، ام لم يعطوه ، فان شيئا جديدا قد حدث في مسيرة الخطأ والخطيئة المستمرة منذ حرب تشرين .

لا يكفي ان نقول اليوم ان حاكم مصر لا يمثل العرب ولا يمثل مصر . دقت ساعة الحقيقة لتنذر بالكارثة الناجمة عن هذه العلاقات القائمة في بنية المجتمع العربي . دقت ساعة اعلان الصراع من اجل الديمقراطية التي صارت في اهمية الخبز وفلسطين في هذه اللحظات . ففي غيابها يفعل الحاكم ، اي حاكم ، ما يشاء. يجوع الناس ليفرغها من ضغط المسألة الوطنية ، ويلجم القوى المؤهلة للتحرير ، ويقفل الطرق المؤدية الى فلسطين . ان بقاء حريات الجماهير الديمقراطية على هذا المستوى من القمع يهدد اي وطن واية ارض ، ويوفر لنموذج الاستبداد العربي امكانية تحويل الامة الى امة من دون دور ، ومن دون شخصية ، ومن دون مستقبل .

لنعترف بان شيئا خطيرا قد حدث ، وبان الصهيونية قد حققت انتصارا كبيرا : فان حاكم مصر ، بزيارته الذليلة ، قد يكسر في النفسية العربية جدار الحرام . ويخلق ثغرات في الوجدان القومي يصبح الاعتراف بالكيان الصهيوني فيه شأنا قابلا للاجتهاد . لقد وفرت زيارة حاكم مصر المرفوع على حراب الغزاة وعلى احتقارنا، قابلية رائدة للتعايش غير المتساوي بين العرب مسلوبي الحقوق والارض وبين الغزاة في شروطهم التي يملونها . لقد كسر الجرة كما يقولون ، وصارت الصهيونية امكانية عربية .

ولنواصل الاعتراف بأن شيئا خطيراً قد حدث ، حتى لو عاد الزائر صفر اليدين والضمير : ان احتمالات ابتعاد مصر عن معركة الامة ودخولها في التصدفة الاقليمية ، سيفدق علينا امكانيات ضاغطة ، مدججة بوسائل الدفاع الفكرية ، لشرعية الدعوات الانعزالية في انحاء الوطن العربي . اننا نواجه الآن اختمار تحول اسرائيل من موضوع صراع الى نموذج يحتذى ، لقد ادخلت مسيرة الحاكم المصري الجنين الصهيوني الى مناطق الضعف، وهي كثيرة ، في الجسد العربي الذي يبدو في هذه اللحظات العابرة عاجزا عن النبض والومض والرفض والحركة الحرة .

شيء لا يصدق . ولكنه وقع . علينا ان نبدع زمننا وان نبذل جهدا ضخما لتحصين النفسية العربية من احتمالات انتهاك قوانين الصراع مع العدو الصهيوني . ان دما جديدا ، قادما من استبداد الحاكم ومن قيادة الرجعية ، يصب الآن في عروق الكيان الصهيوني ويمنحه حياة جديدة . ويذهب الاسرائيليون الى الحياة الان باطمئنان لم يعرفوه منذ ثلاثين سنة ، على الرغم من امكانية « الحرج الاعلامي » الذي سيسببه لهم ذلك الحاكم المصري !! لقد ذاقوا طعم الاعتراف المجاني ، وسيعتادون على سلسلة الاستسلام العربي . ومن حق التاريخ الصهيوني على ارض فلسطين ان يتباهى باعتماده على شرعية العنف والنزعة الانتجارية التي جرت حاكم اكبر دولة عربية ، ومن دون سبب موضوعي ، الى أرخص استسلام في مطار بن غوريون .

ان ما شاهده الاسرائيليون اكبر من انقلاب في تاريخ علاقاتهم بالعرب . اكبر من وعد بلفور . اكبر من انتصار عسكري . فهل انقذت اسرائيل من مأزقها التاريخي ؟. لا . ولكن السؤال صار مؤجلا الان بعدما ارتبط مأزق اسرائيل بمأزق اكبر نظام عربي .

والسؤال الاهم : هل ترضى مصر بهذه الكارثة ؟ ان حاكم مصر هو المسؤول عن استسلامه الشخصي الذي جرده من اية شرعية . ومصر هي التي تعرف ، كما عرفت دائما ، كيف تواصل دورها المؤسس . وتعرف ان بقاء حاكمها الحالي على المسرح هو الخطر اليومي عليها وعلى فلسطين وعلى الامة. لا يستطيع اي حاكم ان يجعل مصر صغيرة وان يسجنها في الحدود واللحظة الراهنة .

ان رحيل حاكم مصر الى الجحيم ، او الى اي مكان يشاء ، سيغير كل شيء ، ويفجر كل شيء .

ومصر هي التي تغير

وهي التي تفجر .